

الخروج

. . . هب . . . ياهيبا ، هيبا ، هيبا . . . ياهيبا - إيب ، ها ، هيا - إيب ، ها ، هيا - إيب ها ها هياى - ها ها إيب .

هكذا تهتف بنات ونساء يام المفعمات بالحيوية والقوة، وهن يمشين بطريقة محسوفة بالمخاطر في مجموعات من ثلاثة أو أربعة على السلم الصخري عند فوهة البئر الواسعة، ثم يسحبن بكل قوة الحبال الغليظة ليرفعن الماء الذي يهب الحياة من الأعماق السفلى. ومن عمق ١٨ قامة يسحبن هذا الماء في دلو من جلود الماعز مشودة على إطارات من الوتّل، وينشدن نشيدهن ذا النغمات العذبة عندما يسحبن الحبال، كل واحدة منهن في دورها تمسك الحبال بيد واحدة أو بكتلتا يديها. هذه الحبال تجري على بكرات صنعت بالمنازل، ومثبتة على مسافات فيما بينها حول البئر على إطار خشبي تسنده أعمدة متينة. وكل جبل من هذه الحبال أطول قليلاً من عمق فتحة البئر، وبه دلو في كلا طرفيه حتى يمكن أن يتم ملء أحدهما أسفل البئر بينما الآخر يتم الإمساك به عندما يصل إلى القمة لكي يتم تفريغه في أحواض تشبه دلاء البئر ولكنها أكبر منها وموضوعة على منصات، والتي وصفت في مكان قريب. وكل منصة من تلك المنصات تحيط بها دائرة من الأغنام والماعز أو الإبل تنتظر إطفاء ظمأها بعد قضاء أيام معلومة في مراعي الصحراء التي تمتد ليومين على أقصى تقدير للأغنام والماعز وأربعة وخمسة أيام في هذا الموسم من السنة للإبل.

ولقد وصلنا بئر الخضراء العظيم قبل الظهر بقليل يوم ٢٥ يوليو، بعد رحلة يسيرة لحوالي خمسة عشر ميلاً عبر أرض صحراوية منبسطة تكسوها الأشجار القصيرة المتناثرة، من (ابن منجم) وهي أقصى قرية إلى الشرق من نجران، حيث كنا قد قضينا الليل بها. وقد انطلقت مجموعة منا بإبلها عند انفلاق الفجر، حيث خيمت بالفعل في

أىكة صغيرة من أشجار السنط الكبيرة المتناثرة فوق البئر عندما التحقنا بها مرة أخرى. وكان الغداء جاهزاً تقريباً في مراحل تغلي تفوح منها رائحة الطعام، وفور انتهائي من ترتيب متاعي تحت الظل الكثيف للشجرة التي اختيرت لجلوسي تحتها، مشيت على مهل للبئر. وكان بعض رجالنا قد سبقونا إلى هناك بالفعل، يحدثون البنات تحت ستار حمل تربيات للسقيا النهائية لجمالنا في اليوم التالي. ولذلك جلست معهم على سلم لبئر لأستمع بهذا اللهو والمزاح. وقد كن أيضاً جميلات وبعضهن يخفن من جهدهن غير اليسير على الإطلاق، وضحكات المرح والثرثرة التي لا تنتهي. وكانت أجسامهن تتحنى وتهتز فوق حافة فتحة البئر عندما كن يجتهدن لسقي حيواناتهن. وكانت ملابسهن البسيطة - أحياناً - والمبللة بالماء المتساقط من الدلاء، تنم عن جمال أجسامهن بالداخل، ولم يخف وجوههن أي ستار عن أعين الرجال، فقد كن يتمتعن بحرية الصحراء أثناء تنفيذ أعمال الصحراء - مثل سحب الماء وقطع الأخشاب.

وبدت واحدة من بين النساء الحاضرات كما لو كانت ملكة وسطهن، برىم كانت بنت شيخ أو زوجة شيخ. وبوقار واضح، مثل واحدة اعتادت على القيعة، أخذت مكانها في أحد المجموعات الصغيرة لسحب الحبال تماماً مثل الباقيات، ولتكنه كانت تعمل في صمت إلا في أحيان قليلة يصدر منها صوت «هيب».

كانت تتمتع بوجه وجسم جميلين، وترتدي ملابس جديدة زرقاء داكنة، مع حزام من نسيج الصوف مطرز حول وسطها النحيل في تباين مع جدائل الحبل الأسود التي كانت بمثابة أحزمة للنساء الأخريات. إن بئر الخضراء يبلغ قطرها عشرين دماً ومكسوة بالحجارة في جميع جوانبها الداخلية حتى مستوى الماء، وتقع على الضفة اليمنى لوادي نجران وترتفع قليلاً فوق النقطة التي تخرج عندها القناة من الصخور في سفح التلال إلى رمال الربع الخالي. ولذلك تعد البئر منطقة توقف للسقيا ذات أهمية عظيمة لبدو يام الذين يجوبون الصحراء برجالهم وقطعانهم. وأثناء شتاء ١٩٣٣ - ١٩٣٤م قام الجيش اليمني، الذي احتل وادي نجران لأربعة أو خمسة شهور، بتدمير

هذا البئر لحرمان قبيلة يام المناوئة من نقطة التجميع المحتملة هذه. ولقد قامت الحكومة السعودية في الحقيقة بإعادة حفرها وإصلاحها في غضون الشهور الستة الماضية، والآن استعادت دورها الطبيعي في اقتصاد الصحراء. وتعود ملكيتها لقبيلة يام ولكن تزورها القبائل الأخرى بحرية، من أقرب الأماكن وأبعدها. حيث تأتي إليها قبيلة وائلة من وادي الفَرع المجاور، وقبيلة الدواسر من واديهم العظيم خلف الصحراء، بل وحتى قبيلة الصيعة تأتي إليه من حدود حضرموت البعيدة.

وقد وجدناه الآن منتجاً ملائماً يمكننا فيه أن نعني بتنفيذ ترتيباتنا ومعداتنا للرحلة الطويلة إلى شبوة وما وراءها. وكان أمير نجران ومسؤولون آخرون سوف يزورنا في اليوم التالي ليروا أن كل شيء على ما يرام وتوديعنا في رعاية الله. وفي الوقت نفسه وبعد قيلولة هنيئة في ظل أيكة كثيفة أطلقت لنفسني العنان لاستكشاف المنصة المجاورة. وتسلقت أنا وجعل، وهو دليلي اليامي من فخذ جُشم قمة جرانيتية مستدقة الطرف تسمى الغر يبلغ ارتفاعها حوالي ٥٠٠ قدم فوق مستوى الوادي في سلسلة التلال المنخفضة التي تشكل الضفة اليمنى للوادي. ومن هنا تمتعنا بمنظر رائع للمتطقة المحيطة بنا في كل اتجاه. فعند أقدامنا يقع البئر مع مخيمنا الصغير المنظم بطريقة مريحة بين أشجار السنط. وعلى البعد تجاه الغرب ترتفع رؤوس الصخور الرمئية لقرن بلحارث. وعبر الوادي بعرض خمسة أميال من هنا، تمتد سلسلة جبال شعبياء التي تشكل الضفة اليسرى وتمتد في ذيل ضئيل يكاد لا يدرك بالعين داخل سلسلة التلال الطويلة والمنخفضة والأرض الرأسية لعين جبونا الناتئة في الصحراء. ونحو الشرق يسط الربع الخالي عباءته من الرمال الذهبية على وجه الأرض إلى الأفق البعيد. وتسير قنوات جبونا ونجران وصلة في أقصى الجنوب، خارجة من حافة المرتفعات في خط مستقيم مثل النرد أو كأشرطة خضراء داكنة وسط الرمل الذي كان يتخلله هنا وهناك مجموعات من التلال المنخفضة ذات اللون الداكن من صخور البازلت أو

الجرانيت. ويرفع كل من تصلال وتنصاب رأسيهما الشاهقين لأعلى من الجبان حولهما، كأنما يمثلان حارسين توأمين لفتحات الوادي. وعلى مسافة أبعد قليلاً إلى الشرق تبرز مجموعة تلال بني كلب المنخفضة مثل جبل جليدي أسود في بحر من الروابي. ونحو الجنوب يقع جبل الثار الهرمي القاتم ليخفي بشموخ بين صخوره شديدة الانحدار وذات الرؤوس الناتئة والحادة. وكأنما يقف حارساً على فم وادي الفرع حيث يبرر هناك من المنطقة المرتفعة في خليج صلة الرملي العميق. وخلف «الثار» ولي الجنوب الشرقي قليلاً يرتفع برج ميهر^(١) المكوّن من الصخور الرملية ذات الرؤوس المربعة، والذي يرتبط في الأسطورة المحلية بأبي زيد الهلالي البطل القديم من جناب الجزيرة العربية، ويبرر بوضوح بين جبالها. وإلى البعيد في الشرق بين الرمال آثار جعلت إلى نقطة سوداء صغيرة وهي تل خباش والذي اضطررنا أن ندور حوله في دائرة واسعة لتفادي الرمل الناعم لوادي صلة في أول مرحلة من رحلتنا. وفي الوقت الذي كنت فيه أشهد هذا المنظر كله كانت الشمس تغطس في حمام من ألسنة اللب الضبابية، وأشعتها تنطلق بصعوبة لتشق عباب السماء المليئة بالتراب والضباب خف جبال حبونا الشمالية - الغربية. وأسرعنا للتزول ونحن نقفز من صخرة إلى أخرى في جانب التل المنحدر بشدة عندما كان الغسق يزداد ظلاماً شيئاً فشيئاً. وكانت الخفافيش تطير فوقنا محدثة طنيناً وهي تخرج من كهوفها وشقوقها بين الصخور القديمة. وهكذا تجاوزنا البئر الذي أمسى الآن مهجوراً وعدنا إلى المعسكر.

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي سمعنا من على بُعد أريزاً سير واضح لسيارة تقترب منا، وبعد ذلك بدقائق قليلة كنا نرحب بالأمير وصحبه بينما عبرت سيارتهم الشاحنة قاع الوادي الرملي ووقفت بجوار البئر. ثم سرنا إلى منطقة فيها كتل من الصخور الجرانيتية الهائلة حيث تقرر أن نقضي اليوم هناك في لظلمة

(١) ميهر: جبل في بلاد وائلة - من بكيل - به آثار حميرية، يشير المؤلف إلى بعضها لاحقاً. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٤، ص٤٢٦. (المراجعون).

البرد الذي توفره تجاويها التي تشبه الكهوف وأقواسها الطبيعية. وتم إحضار الشاي واقهوة من معسكرنا للترحيب بالجماعة وإنعاشها، وفي الوقت المناسب تم تقديم وجبة الغداء الوفيرة عند منتصف النهار والتي شملت الأرز ولحم الضأن. وفي الوقت نفسه قمت أنا والشيخ عبدالمحسن^(١)، قاضي نجران، بالتجول حول الصخور بحثاً عن أي نقوش ورسوم. وقد عثرنا على عدد من كليهما، ولكنها كانت جميعاً قد أصبحت تالفة بصورة سيئة من أثر الرياح والطقس باستثناء بعض الخريشات القليلة المتتوية باللغة العربية الحديثة نسبياً وليس لها أية أهمية على وجه الخصوص. وعلى أي حال كان من الواضح أن هذه الصخور قد آوت العرب الرعاة منذ وقت موغل في القم. وقد سجل جوزيف هالفني نقوشاً حميرية من هنا ولكني لم أستطع إعادة اكتشافها، وقد عثرت على كل حال على خريشة باللغة العربية القديمة بين الكتابات الكبيرة الكوفية العربية على الجدران الصخرية. ويمكن العثور على كتابات أخرى من الخط البدائي نفسه على الصخور المواجهة للجنوب في الجانب الآخر من سلسلة الجبال الرئيسية. وكانت صور الإبل وطيور النعام والحيوانات الأخرى شائعة بدرجة كافية، ولكن الأشياء الأكثر إثارة كانت عدداً من الأشكال الهندسية ذات أهمية غامضة. وقد كان القاضي شغوفاً بدرجة عميقة بالتاريخ القديم والمعاصر لمنطقة نجران، وكان يقضي كثيراً من وقته في مقابلة البدو الزائرين ليجمع منهم معلومات عن الأماكن والقرى التي توجد بها نقوش أو أي سجلات أخرى تعود للماضي. وفي الحقيقة يعود له ولأبحاثه الفضل في أنني قد سمعت بالكثير من مثل تلك الأماكن التي تمكنت لاحقاً من زيارتها ورؤيتها بنفسي.

(١) هو الشيخ عبدالمحسن بن سليمان بن محمد الخريديلي قاضي نجران آنذاك تولى القضاء في نجران بعد عام

١٣٥٢هـ وتزوج واستقر بها إلى أن كانت وفاته فيها عام ١٣٥٥هـ أو ١٣٥٦هـ.

عبدالله البسام: علماء نجد خلال ثمانية قرون، ج ٥، ص ٢٢-٢٤. (المراجعون).

ولقد استحوذ على الأمير نفسه منذ البداية اهتمام عميق بمشروع بعثتنا المقترح، وإليه يرجع الفضل في تنفيذ جميع الترتيبات الضرورية بصورة حسنة جداً وسريعة. والحق أنني قد تركت له الحبل على الغارب ليكون حراً في إنفاق تلك المصروفات الضرورية نيابة عني. ومن واجبي أن أسجل هنا مع الشكر والعرفان بالجميل أن إجراءاته المالية الناجحة لا يضارعتها إلا كفاءة تصرفاته. وربما يكفي أن أذكر أن الأبل التي استأجرها لاستخدامنا لم تكلف أكثر من خمسة عشر ريالاً (حوالي حنيه استرليني فقط) لكل جمل في رحلة استغرقت شهرين ونصف.

وكان الأمير، إبراهيم النشمي، قد أحضر معه لوداعنا ابنه الصغير الواحد، محمداً، وهو فتى في مقتبل الشباب ويبلغ حوالي خمسة عشر عاماً من العمر، وأخاه، واسمه أيضاً محمد، الذي كان في ذلك الوقت نائب الأمير على منطقتي جبونا وير. واكتملت الصحبة بحضور موظف المالية المحلي وقائد قوة الأمن وعدد من أتباع الأمير النجديين. وفي الوقت الذي انتهينا فيه أنا والقاضي من بحثنا عن النقوش كان العداء جاهزاً، في حين كان الأمير قد انتهى من المراجعة الختامية لجميع الترتيبات المتصلة بفواد ومعدات بعثتنا. ولم أستغرق الآن وقتاً طويلاً في مناقشة جميع التدابير التي تم اتخاذها وتم تسليمي قوائم بالدفعات المقدمة التي تم تسديدها لأصحاب الإبل على اختلافهم وقوائم المبالغ الباقية التي يجب دفعها عند عودتنا، وفي تلك الأثناء تم تعريفني على سعد ابن معيلم الذي سيكون مسؤولاً عن جميع الأفراد بالبعثة. ولم تستهوني عينه البضاء ونعومة سحته حتى تجعلني أنحاز لصالحه كثيراً عند أول نظرة. ومع ذلك ثبت أنه تخفء بدرجة معقولة كوسيط للتصرف في كثير من بنود الأشغال الصغيرة، مثل: المشتريات المحلية، والتفاوض مع المرشدين لإدراجهم في قوائم الأفراد العاملين معنا، والإشراف على تحميل الجمال وتنزيلها وخلافه، والتي تعد جزءاً لا يتجزأ من مثل هذه المغامر ولا يمكنني أن أدخر وقتاً لها وسط خضم الانشغال بالأمور الأخرى الأكثر أهمية. وعلى أي حال كان من الواضح أنه لا يستطيع السيطرة على العناصر المختلفة في جماعتنا، لاسيما

أولئك النجديين الثمانية من أتباع الأمير الذين كانوا يشكلون نوعاً من الحراسة الشخصية المسوّلة عن سلامتي. وحيث إنهم كلهم كانوا من فئة الزكركت^(١) مثل سعد فإن كل واحد منهم كان يعد نفسه مساوياً له أو أفضل منه، قد جعلهم أقل العناصر سهولة في قيادتهم من بين الجماعة عامة. وبالمقارنة معهم كان البدوي يعد قديساً. وفي الوقت نفسه كانت ملابسهم الرائعة وإبلهم المكسوة بأغطية مزركشة بشكل جذاب قد جعلتهم يبدون في صورة بهية وجميلة وكانوا محط إعجاب الجميع أثناء إقامتنا المؤقتة في شبوة ومنطقة حضرموت. وأنا مقتنع تمام الاقتناع، على الرغم من أنه لم تأت مناسبة أبداً لاختبار ذلك، أن هؤلاء الثمانية سوف يقفون معي وقفة رجل واحد في أي موقف جاد أو خطير. ولبعض من الوقت تكونت صحبتي من النجديين الثمانية تحت قيادة سعد وحوالي اثني عشر رجلاً أو أكثر من رجال قبيلة يام تحت قيادة جعل، بالإضافة إلى فرح بن قرقاح من قبيلة قحطان الذي رافقني من أبها وتحول إلى صياد طيور كفاء بدرجة معقولة أثناء إقامتنا في نجران. كما كان هناك أيضاً بين المرافقين سعد بن عثمان الذي التحق بنا من مجموعة رحلتي في الربع الخالي ويعمل على سلخ الطيور وخادم عمي، علاوة على طباطخ وقهوجي وكلاهما وفرهما الأمير. وهناك محمد السائق وبلال الميكانيكي الذي ارتبط بنا في نجران كمساعد لمحمد. وكان يزعجني قليلاً حقيقة أن المجموعة لا تضم ممثلاً واحداً أو دليلاً من القبائل الأخرى الموجودة في مناطق أخرى غير منطقة قبيلة يام، مثل قبائل دهم، والصيعر، والكرب، ولم أستطع أن أتمالك نفسي من التساؤلات إذا ما كانت تأكيدات الأمير بأن هذا القصور سوف يتم استيفاؤه في الأماكن المختلفة أثناء سيرنا بالطريق لاستكمال الإجراءات والترتيبات التي اتخذها، وهي ستبرر النتائج ذلك. والحق أنني أسأت إلى الرجل بمجرد الشك في تأكيداته، ففي كل حالة كان الرجال الذين سماهم يصلون إلى معسكرنا في الأماكن التي دبرها.

(١) ترجع هذه الكلمة إلى الكلمة الإيطالية (Sacurta) أو (Shurta) الشرطة، وأيضاً من الكلمة الفرنسية (Surete). (المؤلف).

وهكذا كان كل شيء جاهزاً فيما بعد ظهر هذا اليوم. وتبذل الوداع الحزين الطويل بين النجديين معنا وأولئك الذين يتبعون الأمير العائدين معه إلى نجران. لهم سيعودون إلى زوجاتهم وإلى الحياة المريحة الرتيبة بمقر الإمارة. ووقفنا على حافة المجهول، ولم يعلم أحد سواي طول المسافة التي ننوي أن نقطعها إذا سارت الأمور لصالحنا. وكانت شبة قد ذكرت في الاتفاق غير المكتوب الذي عقدناه مع رحال الإبل على أنها أقصى نقطة في رحلتنا والتي لن يطلب منهم بعدها السير تحت أي ظرف من الظروف. ولم تتمكن من بدء الرحلة إلا في الصباح التالي، وبعد مغدرة إبراهيم النشمي وصحبه تجولت حول الوادي وأشجار السنط بحثاً عن الطيور. وكنت البئر مزدحمة طول الصباح، وهي تمد قطعاً هائلة من الإبل بالماء بما فيها جمائد نحن. وفي منتصف النهار كانت البئر قد جفت تقريباً، ونزل فيها رجلان بالحبال ليغرفا الماء في أوانٍ من القطرات الضئيلة في أطراف البئر، وجاء الماء مشقلاً بالطين الأسود، بيد أن الجمال قد سحبت الماء في بطونها وهي تصفيه من خلال الضغط على شفافها. ثم تم صب رواسب الطين على الأرض، وشكلت بركة صغيرة من الوحل الأسود كريهة الرائحة حول البئر. وقد تقلب أحد الجمال في هذه القذارة ليخفف من الحكمة في جلده المغطى بالقراد، ولكن صاحبه قد انهال عليه بضربات مدوية حتى انتصب الجمل واقفاً على قدميه مرة أخرى. وجاء زوجان، كان من الواضح أنهم قد تزوجا حديثاً، إلى البئر ومعهما حيوانات قليلة لسقيها. وكان معهما جبل جديد تماماً، حيث أنزلاه في البئر حتى يتشبع بالماء قبل الاستخدام. ثم اختبرا استعماله؛ ولكن ثبت أنه أقصر من عمق الماء بقامة واحدة. وأخرجوا جديدة من جبل قديم من متاعهما الضئيل، وقاما بجعلها مع الجبل الجديد، وبدأ العمل - حيث انهمك الرجل وزوجته في سحب الحبل ولا يتبادلان كلمة واحدة إلا ما ندر إلى أن انتهيا من عملهما وغادرا المكان.

وهكذا انقضى النهار، وحلّ الظلام، وكان كل شيء جاهزاً للمغامرة التي ستبدأ مع الفجر. وتضاءلت نيران المعسكر عندما هجعت كل جماعة في سبات عميق، وبقي سراجي المتوهج الوحيد ليضيء الظلال المظلمة للشجيرات المحيطة بنا. وببما كان الظلام لا يزال يلفنا بصمت مطبق، وكنت تقريباً قد أخذت لنوم مريح، على ما يبدو، فإذا ببدء الصلاة يعلن مجيء يوم جديد. وكانت جماعة الإبل سوف تسك طريقاً مباشراً عبر المنطقة الجبلية والرملية إلى أن تصل إلى النقطة المتفق عليها لإقامة المعسكر القادم، أما نحن، ركاب السيارات، فقد بدأنا السفر عند الساعة الثامنة صباحاً حينما بدأت القطعان الأولى من الأغنام ورعاتها البنات تصل للبئر. ولحوالي ميل التزمنا قاع الوادي، ونحن نمر بين تلال هضبة الرويكة وهي ترتفع شامخة على كل من الجانبين مثل مدخلين هائلين مهيبين. ومن هنا تنحدر التلال للوراء نحو الجوب، وتشكّل خطأ حاداً فاصلاً بين الجبال والصحراء. ويسير الوادي في خط مستقيم إلى أن يصل بئراً قديمة مطمورة تسمى بئر الحجف^(١) في بطن الوادي قرب تل فريع الصغير، ثم يواصل امتداده إلى أن يدخل في الرمال التي لا حدود لها - مثل شريط واسع أخضر من شجيرات الراك والسواد وسط التلال الصفراء.

وعندما تركنا الوادي خلفنا، اندفعت السيارات الآن على طول الحافة الخارجية للتلال عبر سهل رملي منبسط يندر فيه غطاء الأشجار إلا من بعض الأجمات اليابسة القصيرة وشجيرات السنط القصيرة مثل مظلات كثيرة تقف على مقابضها. وبعد أن مشينا حوالي خمسة أميال عبر هذا السهل، الذي يعرفه البدو بصورة غامضة باسم عضيات نجران، أتينا على هضبة صغيرة مدورة تسمى «جعل الأبيض» وهي من صخور الجرانيت والكوارتز، تمتد نظيرها «جعل الأسود» المكوّنة من صخور البازلت، إلى البعيد قليلاً نحو الجنوب الغربي. هذه الهضاب الصغيرة المنتثرة، مثل لقيلاء

(١) الحجف: قرية تقع على ضفاف وادي حبونا. البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ٢٠٦. (المراجعون).

وخباش التي وصلناها فيما بعد - لا ترتفع إلا حوالي خمسين أو ستين قدماً تقريباً فوق سطح السهل الرملي. وفي هضبة جعل الأبيض عثرت على رسم بدائي على الصخر لرجل شاهر سيفه مستقيماً في يده اليمنى وخنجر في وسطه.

وكان توقفنا الثاني في «لقيلاء» على بعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال للشرق. وقد كانت عبارة عن هضبة صغيرة مكوّنة من صخور الجرانيت الضخمة التي تتراكم فوق بعضها بصورة مفككة في وسط السهل الواسع نفسه، الذي كان هنا مكوّاً بالرمل بشكل كثيف حيث تلاشى فيه الشريط الضيق من الشجيرات الذي يميز تناة وادي صلة بالقرب من الهضبة الصغيرة مقابل الخط الزهري المنخفض في أول سلسلة حقيقية من سلاسل التلال الرملية في الصحراء. وبعد مواصلة السير حوالي سبعين ميلاً على طول خط سلع وصلنا إلى خباش وهي عبارة عن كتلة صخرية منخفضة مكوّنة من الجرانيت الرمادي ذي الحبيبات الخشنة وقد طمسها الرمل تقريباً. وكانت هذه أبعد نقطة وصلناها في لشرق حتى الآن. وخلفها تمتد رمال الربع الخالي الكثيفة. والحقيقة أننا حتى هذه اللحظة لم نواجه أي صعوبة تذكر، على الرغم من أننا قد قاومنا إغراء مطاردة بعض الغزلان التي رأيناها في طريقنا وزوج من طيور الحبارى. وفي جولة بحث حول هضبة خباش لم نثر إلا على قشر بيضة نعام، ولا شيء أكثر من ذلك. وإلى البعيد باتجاه الشرق لاحظنا هضبة أخرى سوداء صغيرة تسمى «القفال» وسط الرمال، بينما في الضباب البعيد في اتجاه جنوب - جنوب شرق كانت ترتفع سلسلة هضبة ذات الصخور الجرانيتية العظيمة، والتي سوف نصلها في غضون يومين من هنا. والنباتات في هذه المنطقة كانت محدودة تقريباً على حشائش النصي، ولكنها كانت ميتة وجافة جداً.

وامتد سيرنا الآن باتجاه الجنوب - الجنوب الغربي نحو فم الوادي ويسمى إمارة والذي يهبط في اتجاه جنوب - شرق من تل مرتفع قليلاً بهذا الاسم نفسه في قرية سيهر المجاورة. وبعد حوالي تسعة أو عشرة أميال في الرمال وصلنا إلى نقطة يتلاشى عندها

هذا الوادي في الصحراء بين سلاسل تلال البقع وعباسة المنخفضة. ومن هناك انطلقنا في قاع الوادي الوعر قليلاً حوالي ثلاثة أميال حتى وصلنا إلى مجموعة صغيرة من شجر السمر (أي السنط) وفيرة النماء والتي كانت مكان الالتقاء المتفق عليه مع مجموعة الجمالة. وهكذا اخترنا هنا موقعاً ملائماً لمعسكرنا. وكان الوقت قد تجاوز الواحدة ظهراً بقليل، ولكن الريح الشديدة كانت بالفعل قد بدأت تهب علينا، مثلما كانت تفعل كل مساء في الخضراء، وكان الرمل يندفع بقوة في عواصف عظيمة عبر الوادي. وكان معسكرنا يقع قريباً من المقدمة المنخفضة لسلسلة جبال طويلة من صخور الجرانيت القاتم تسمى خرطم الصعرة، والتي تشكل الجبهة الشرقية لتلال اليمن.

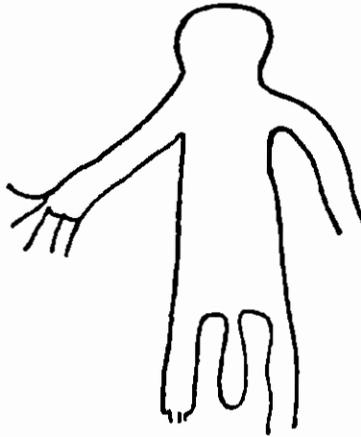
وكنّا في هذه النقطة ما نزال في الأراضي السعودية، ومع ذلك لم يحتفظ جباة ضرائب نجران إلا حديثاً فقط بسجلات سنوية للأغنام والإبل التي تشرب من الماين كذلك في وادي الحشوة وكلاهما يقع بعيداً إلى الغرب من معسكرنا. ومسألة الحدود بين اليمن والسعودية قد خضعت مؤخراً جداً للنظر من قبل الحكومتين، وسوف نوردها بالشرح في الوقت المناسب. إن الحدود الجغرافية الطبيعية دقيقة إلى حد يثير الدهشة، ولكن يجب النظر في مسألة حقوق السقيا داخل حواف التلال؛ ولذلك يجب أن تسيّر الحدود السياسية مع الحدود القبلية المعترف بها، والتي تم تحديدها منذ زمن طويل مع الاعتبار الملائم لجميع المصالح المعنية.

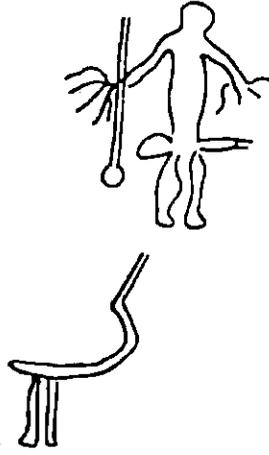
وبعد الظهر تسلقت إلى نقطة ممتازة في سلسلة الصعرة التي تطل على المنطقة وتوفّر رؤية جيّدة. ويمتد وادي إمارة في خط عريض من الأشجار الذابلة وحشيش الشام الجاف نحو ميهر ويفصله رف منخفض من الحصباء عن وادي الحشوة المشابه له الذي تقع في جانبه، على بعد مسيرة يوم مع اتجاه المجرى قرية يمنية تحمل الاسم نفسه، وتتكون من مبان متناثرة تشبه القلاع وسط البساتين، وتسكنها عشيرة وائلة، وعلى مقربة من أعالي القرية يتلقى الوادي المياه المتصرفة من وادي أملح وضدح وكلاهما به مجموعة من منازل عشيرة وائلة في مجراه البعيد. ويصل وادي الحشوة

إلى الصحراء جنوب سلسلة البقع التي ذكرناها من قبل، ولكن لا هو ولا وادي إسارة يتقدمان كثيراً للأمام عكس الرمال الزاحفة التي تعترض تقدمهما. وكلا القناتين تندمجان بصورة عامة في حديث البدو تحت اسم واحد وهو وادي العطفين.

وحيث إن فترة بعد الظهر قد انقضت دون ظهور أي أثر لجماعة الإبل التابعة لنا فقد بدأنا نتساءل ما إذا كانوا قد أخطروا في الوصول إلى مكان الالتقاء أو ضلوا في الطريق. وفي الحقيقة لم يصلوا إلا الساعة الثامنة ليلاً. ويعود سبب التأخير جزئياً إلى سقوط أحد الأحمال، ولكن السبب الأكثر خطورة كان اختفاء ناقة أثناء توقفتهم منتصف النهار. ولم يكتشف أحد اختفاءها إلا بعد أن تم إعادة الإبل من المرعى لاستئناف السير في فترة بعد الظهر، وبعد ذلك تم اقتناء أثرها في طريق طويل حتى الخضراء حيث عادت إلى هناك بحثاً عن صغيرها الذي انفصل عنها ذلك الصباح. وبدأ كل فرد في غاية السرور على الرغم من ذلك الحادث، وسار كل نبيء على ما يرام. وكان الليل وساعات الصباح الباكرة جميلة جداً بصورة عامة، إذ كانت باردة وخالية من الرياح في تلك الفترة من العام. وفي ذلك المساء على وجه الخصوص كانت السماء ملبدة بالغيوم بعد الغروب مباشرة، ولكن عندما غاب القمر حوالي الساعة العاشرة مساءً كانت السماء قد أمست صافية مرة أخرى وتلاألت النجوم ببريقها الأسر. وعلى أي حال هبت في الصباح الباكر من اليوم التالي زيج مفاجئة، ليست شديدة جداً، ولكنها كانت مستمرة، وغطى الرمل المتطاير الوادي مما جعل الرؤية محدودة. وكان من المقرر أن يتم سقيا الإبل في الماين على بعد لعيال قليلة فقط، وقررت أن استغل هذه الفرصة لزيارة قمة ميهر وتبعاً لذلك انطلقت بقوة عبر وادي إسارة حتى دخلنا وادي الحشوة الذي يتدفق عند هذه النقطة من قناته بعلى التل في وادي رملي واسع مليء بأشجار السنط وشجيرات الراك والنباتات الأخرى. ولفترة من الوقت طاردنا بعض الغزلان بلا نجاح، ثم عضينا في خط مستقيم نحو قاعدة تل ميهر. وهناك أوقفنا السيارتين، وأسرعت أنا وجعلم في التسلق بصعوبة

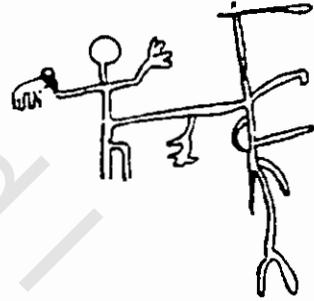
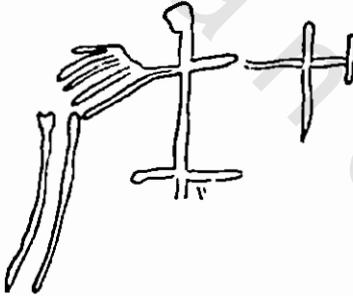
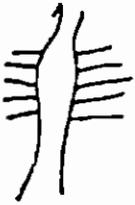
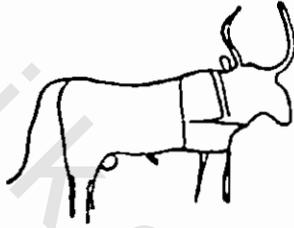
على الواجهة الجرانيتية للجبل. وبعد حوالي ألف قدم فوق سفح التل وصلنا قاعدة ذروة ضخمة من الحجر الرملي التي تشكل القمة الحقيقية. وبعد حوالي مئة قدم أخرى وصلنا إلى قاعدة عريضة ترتفع منها الأسوار العمودية «لقلعة» أبو زيد حوالي أربعين قدماً حتى القمة المسطحة. وقد بدا هذا الجزء الأخير غير يسير المنال من الناحية العملية ولم أبدأ إلا محاولة فاترة لتسلق الجرف عن طريق سلسلة الشقوق الضحلة والمتاعدة عن بعضها في الصخور والتي صنعها الإنسان بلا ريب؛ ولذلك اكتفيت بأن أدور دورة كاملة حول «القلعة» على طول القاعدة العريضة التي تدعمها. وعلى الأسوار العمودية كانت هناك بعض النقوش القليلة مكتوبة بالخط العربي البدائي العائدي علاوة على عدد من الرسوم البارزة ذات الأهمية الكبرى. ويبدو أن أحد هذه الرسوم كان صورة شخصية لأبي زيد نفسه مع إضافة قضيب ذي نسب مبالغ فيها. والرسوم الأخرى تمثل ماشية، بينما كانت مجموعة أخرى بكاملها مخصصة لمعركة ضحمة بين كائنات بشرية وثعابين كبيرة. وحيث إنني قد قمت -حسب أقصى قدرتي- برسم الصور والنقوش، فقد جلست مع جعمل للتمتع بهذا المشهد العريض نأخذ وجبة بسيطة من الخبز والماء كنا حملناها معنا. وأخرجت علبة ساردين أيضاً من الجراب، ولكن جعمل رفض تناول أي شيء من هذا الطعام المريب، وهكذا التهمت السك كله بمفردي.





وتحتنا -على مسافة غير بعيدة- كان رجالنا ينعمون بنوم القيلولة عند منتصف النهار في واد ظليل، بينما فوقهم بقليل في نتوء من الوادي فوق مضيق صخري قصير كانت تقع عين الماء "المالين". وقد نزلنا في ذلك الاتجاه، وواصلت وحدي السير على الأقدام صوب معسكرنا، في حين انطلق جعلل ليرشد السيارات لتسلك الوادي. وكان عمق عين الماء يبلغ خمسة أقدام فقط في الرمال الكثيفة في قاع الوادي. وتقع تحت شجرة عُنَّاب ضخمة والتي كانت تلهو بين أغصانها مستعمرة كاملة من طيور الحباك الصغيرة (Weaver Birds). ويمتد أيضاً صف من أشجار السنط مسافة معينة في اتجاه الماء. وكان معسكرنا على بعد حوالي نصف ميل في الأسفل، في واد ضيق كثيف بأشجار السنط خلف الممر الصخري الضيق الذي يفصل بين جزأي القناة العلوي والسفلي، ويهبط نحو الوادي عدد من الممرات الضيقة تشيرة الصخور المتحدرة من الجبال المحيطة. وكانت هذه البقعة جذابة ورائعة بصورة عممة. ولكن الوقت كان قصيراً ولا نستطيع أن نتوانى، وكان زفاقنا -في الحقيقة- قد انتهوا من تناول طعام الغداء، وكانوا على أهبة الاستعداد لاستئناف سيرهم. وهكذا حلما وصلت السيارات غادرت الإبل، وأخذنا قسطاً من الراحة لبرهة من الزمن بعد الوجبة الممتازة وذلك قبل أن نتبعهم.

من البدو المحليين ولا من النجديين، قبله الأنظار الغيورة. وخلال سيرنا هذا اليوم تمكن هو وسعد بن معيلم من افتعال مشاجرة مع بعضهما من لا شيء على وجه الخصوص. وطبقاً لأقصى حدود علمي كان يبدو أن فرجاً هو المخطئ، وقد لاحظت بالتأكيد لبعض الوقت، حتى قبل مغادرة نجران، أنه لم يكن في أفضل حالاته على الإطلاق. وأثناء إقامتنا المؤقتة كلها في نجران كان من الواضح أنه لم يعثر على شيء يشبع شبقه وشهوته، ولذلك ثارت أعصابه وجُنَّ جنونه.



وفي حوالي منتصف الليل كان هناك لفحة برد قارس في الهواء، ويزغ النهر وسط ضباب رملي كان قد بدأ يتناثر في السماء قبل أن نتحرك حوالي الساعة الثامنة والنصف. وكانت الإبل سوف تسير في طريقها العادي المباشر عبر التلال، في حين كان على السيارات أن تدور مرة أخرى في دورة واسعة لتلتف حول تلك التلال. وقد سعدنا في البداية أرضاً مسطحة رملية بين سلسلة طيبة الاسم على يسارنا وجبب المطابق الرئيس على يميننا إلى مضيق منخفض (بين قمتين في سلسلة الجبال)، ووراءه يمتد ممر واسع لأميال بين سلاسل تلال متوازية ذات ارتفاع عظيم. وقبل أن نصق المضيق المنخفض وعلى بعد حوالي ميل أو أقل من معسكرنا مررنا على نُصب من

الحجارة على الطريق، يعرف باسم «ردم الحد» وهو علامة الحدود بين قبيلتي يام ودهم. ومن المضيق المنخفض نزلنا على منحدر رملي وعر قليلاً و متموج، إلى رأس المر حيث انطلقنا هناك بسياراتنا بخفة ورشاقة ومرح حوالي عشرة أميال حتى وصلنا إلى صخرة هريرة الجرانيتية البارزة قليلاً. وفي هذه النقطة توقف خط التلال عن يميننا، وتحولنا من اتجاه شمال - شرق إلى الجنوب الغربي على مسار في أمواج رملية عظيمة نحو سلسلة جبال الهضبة. وكان سيرنا طيباً بشكل عام، على الرغم من وجود بعض البقع الوعرة على مسافات متفاوتة، وكم كنت سعيداً عندما - بدون حادث مشؤوم - وصلنا تلاً صغيراً مدوراً ومنخفضاً قريباً من طرف «الهضبة» التي ترتفع كتلها الصخرية العارية الكبيرة إلى حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ قدم فوق الأرض المنبسطة. وفي ذلك التل الصغير عثرت على رسوم بدائية لرجل يحمل رمحاً وهو على ظهر حصان واثنين أو ثلاثة من النماذج الباهتة لتيس الجبل.

وقد اجتزنا الآن الجانبين الطويلين للمثلث متساوي الضلعين، وعدنا مرة أخرى إلى الطرف البعيد لقاعدته على الطريق الذي سلكته جماعة الإبل. وكان هذا الطريق يمتد عبر وادٍ مليء بالشجيرات بين سلسلة الهضبة العظيمة المنفصلة عن القسم الرئيس لمرتفعات اليمن، حيث يتدفق كلاً من وادي القعيف ووادي سلبا إلى أسفل حتى يتتها بصورة أو بأخرى في رمال الصحراء في نقطة بعيدة إلى الشرق بعد أن يتحدا ليكونا وادي اليتمة. وسرنا بمحاذاة حافة «الهضبة» نظراً لأن السير هنا كان يبدو أسهل من المشي بعيداً عنها في الوادي الذي يعج بالشجيرات، ووصلنا مخيمنا عند منتصف النها في شعب وضاح بعد وصول الإبل إليه بدقائق قليلة فقط. وفي الحقيقة لم يكن آخر المتأخرين القليلين منهم قد أتى بعد، عند وصولنا المعسكر.

وكان سعدان قد احتفظ لي بكهف عميق في جانب التل بمستوى الوادي، وهنا هجعت في نوم سعيد عند القيلولة بعد غداء دسم من الجريش المطبوخ بالبصل و غارق بالسمن بصورة عظيمة. ولم يتناول جعلمل، الحساس مثل معظم البدو الذين لم

تفسدهم روائح الأطعمة الأجنبية غير المألوفة، شيئاً من ذلك الطعام وآثر أن يظل طاوياً على الجوع. حتى ونحن بالسيارة وهو يجلس على المقعد الأمامي بجواري وأنا أقودها كان يلف غطاء الرأس (الشماع) على فمه وأنفه ليتقي أذخنة البنزين التي كانت بالنسبة لي ضئيلة لا يمكن إدراكها. لقد كان فرداً غريباً تماماً، ولكنه كان دائماً لطيفاً ودمت الأخلاق كريماً ميالاً للمساعدة، خبيراً في حدود معرفته الخاصة بعلم الصحراء، ومع ذلك كان بطيئاً في الفهم بصورة متناهية، وغيباً في حماقة. وبالرغم من ذلك كان يرشدنا إلى المناطق السهلة وهو يبدي إحساساً ممتازاً بمعرفة الطريق يكاد يكون خارقاً للعادة تقريباً.

وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة بعد الظهر تسلقت أنا وجعلت قمة أحد الجُرف الجرانيتية العظيمة في الهضبة الذي يرتفع حوالي ٦٠٠ قدم فوق معسكرنا. ولكي نصل إليه سرنا عدة مئات من الأقدام على عمر طبيعي يبلغ عرضه حوالي عشرة أقدام والذي تشكل نتيجة الانفصال الجزئي لخدق البارلت بين جدران من الجرانيت الصلب والمتماسك الحبيبات ذي لون يميل للحمرة. وكان يمتد في خط مستقيم إلى حافة التل في منحدر شديد، ويبدو تقريباً كما لو صنعته يد الإنسان. وخلفنا إلى الشمال كانت توجد عدة ذرى للقمة الجرانيتية الناعمة التي كانت تصل في ارتفاعها لحوالي ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم فوق الجرف الذي كنا به. وفي الثنية المعترضة يقع رأس وهد وضاح الذي ينغمس داخل الجبل في سلسلة من الدرجات العميقة مثل درج السلم، والتي يوجد في أحدها تجويف ضخم مليء بالرمل الذي يحتفظ بقدر وافر من الماء بصفة دائمة تقريباً. وعلى الصخور حول البركة عثرت على رسم تالف جداً لرجل يمسك رأس حصان، وكان هناك رسم بدائي آخر لرجل قد مد يديه يزين صخرة أخرى مجاورة، بينما يوجد بالقرب من كهفي تماماً مجموعة من حوالي عشرة قبور قديمة واضحة.

ومن هنا كان هناك مسقط منحدر آخر يؤدي إلى الكهف، حيث كان الوهد ينسبط في قناة دقيقة مليئة بالشجيرات والقيعان الجافة الصغيرة ومغطاة بأوراق الحشيش اليابسة.

ومن الجرف العالي نظرنا نحو الجنوب على بقعة جديدة من الأرض التي يخفيها عنا من هنا الجزء الرئيس من سلسلة جبال الهضبة. بينما كان المسار الشمالي الذي سافرنا عليه بالفعل قد اختفى عنا الآن بسلسلة الجبال الشاهقة خلفنا. وكنا نستطيع رؤية وادي اليتمة وهو يسير ملتويًا لمسافة بعيدة في الصحراء متجاوزاً ذرى أم الشداد البارزة التي تغيّر لونها بفعل العوامل الطبيعية، ويقع خلفها سلسلة من الجبال البازيتية القائمة حيث يكون جبل مرة في المقدمة ويليه جامع والطويلة من ورائه، وقم سلسلة جبال المعو الشاهقة في الأفق البعيد وراء تلك الجبال نحو الجنوب الشرقي. وبالقرب منا، وإلى البعيد قليلاً نحو الجنوب ترتفع الرؤوس الناتئة لكل من صخير وسويقة وقرء مع سلسلة جبال الوعير وقمة شري من خلفها على جانبي وادي خب العظم. وإلى البعيد ناحية الجنوب الغربي والغرب تمتد الجبال التي تحيط بعيون مياه السقا الثلاثة وهي الصفحة والجب وصيح.

وفي مكان ما من هذا المسار بوادي اليتمة كان هالفي -الذي يعتري وصف رحلته قصور شديد في التفاصيل الجغرافية بشكل يثير السخط والغيط- قد هجره مرشوه من البدو وتركوه يتجول في الصحارى وحيداً وقد أصابه الجوع والعطش إلى أن وقع على مخيم ضخم للبدو الرحّل حيث استطاع هناك أن يجلب معه مرافقاً جديداً -ولكنه كان مشاكساً- إلى نجران. وفي مكان ما بين هذه البقعة ومقصده في نجران يبدو أنه قد قابل قافلة آتية من حضرموت. وكان جعله يقول: إن المسار الذي سلكته جماعة الإبل التابعة لنا يتطابق تقريباً مع طريق حضرموت، والذي لا يزال مطروقاً على طولته على الرغم من تقطع حركته، وما زالت علاماته يمكن رؤيتها أينما كانت الأرض خالية من الرمل بدرجة كافية لينطبع عليها أثر السير بصورة دائمة.

وعلى هذا الخط لا يكاد يوجد شك في أننا الآن نمشي فوق واحد من الطرق العديدة التي سلكتها تجارة التوابل القديمة بالعريية السعيدة. وكان هالفى يأمل أن يعثر على دليل لمرور إيلوس جالوس وجيشه الروماني من خلال سيره في الدرب الذي يمتد من الجوف وعبر واحات خب حتى نجران. إن كلا الطريقين الخارجي والداخلي اللذين سلكتهما جنوب الهضبة يقعان إلى الشرق من طريقه، ولكني بكل تأكيد لم أجد ولو أثراً واحداً لهذه البعثة العظيمة والمدمرة في آن واحد. كما أن وصف سترابو لها، مع ما فيه من أسماء عديدة لا يمكن التعرف عليها الآن، يتعذر بصورة بالغة التوفيق بينه وبين الطبوغرافيا الحديثة لهذه المنطقة. فلقد تغيرت بلا ريب أسماء الأماكن مع تعاقب القرون الغابرة، ويبدو من المحتمل علينا الانتظار إلى أن يتم اكتشاف خريطة حميرية أو معجم جغرافي² قبل أن نتمكن من بذل أية محاولة لحل ألغاز سترابو وبلييني.

وقد بدأت جماعة الإبل في الارتحال عند الساعة الثالثة عصراً، ووقتها شرعت أنا وجعلم في ارتقاء الجبل. وعندما عدت للمعسكر لم تكن الساعة دون الخامسة مساءً بكثير، ولم يكن لدينا وقت نهدره سدى قبل بدء المسير. وتقدمنا في البداية بسهولة كافية فوق سهل ثابت مؤلف من صخور رملية ذات حبيبات خشنة وتتناثر به أشجار السنط على طول الضفة اليسرى لوادي القعيف. وأصبح سطح الأرض فيما بعد متموجاً بموجات الرمل المنخفضة، وتتشرب فيه شجيرات الراك التي تنمو على التلال المنخفضة. وكان هذا علامة بداية مجرى قناة اليتمة عند التقائها هنا بأودية سببا والقعيف الموازية لها. وبعد ذلك بقليل عبرنا الوادي وتقدمنا في اتجاه الجنوب على طول خط التلال عن يميننا. وعبرنا قناة مدرك وهي في اتجاهها للالتقاء بوادي اليتمة، بالقرب من نقطة بروزها من هذه التلال. وكان الشفق قد أرخى سدوله علينا فور دخولنا وسيرنا في قناة وادي قراء الرملية باتجاه الغرب. وأمسى الآن من الصعوبة لنا بمكان أن نرى أمامنا بدرجة كافية لنسيطر على مسارنا، ولحظنا السعيد -أكثر من مهارتنا- يرجع الفضل في تفادينا الغوص في الرمال. وكنا ننوي الوصول إلى بئر قراء

وهي على مسافة ليست قصيرة من هنا في أعلى الوادي، حسبما اتفقنا مع جماعة الإبل، بيد أن القدر تدخل مرة أخرى وأنقذنا من ذلك المجهود العقيم. وفي ثنوء كبير من اوادى لاحظنا واتجهنا فوراً نحو نار معسكر وحيد، لنكتشف وجود خيمة فريدة تسكنها عائلة من قبيلة الصيغر تتكون من رجل ذي هيئة رائعة ولحية كثة ضخمة سوداء وزوجته الكبيرة قليلاً في السن وهي تحمل رضيعاً بين ذراعيها، ناهيك عن قطع الماعز الصغير. ويبدو على الأرجح أنهم لم يشاهدوا أبداً سيارة من قبل، ولكنهم لم يرتاعوا كثيراً من ذلك الشبح المتوحش الذي هبط عليهم من الظلام. وعلى أي حال فقد استقبلونا بقلوب مرحة وكرم وفير، وأخبرونا في الوقت نفسه أنه لا طائل من الذهاب للبئر إذ كان جافاً. وكان ذلك بمثابة لطمة لنا، ولكننا شعرنا بالراحة قليلاً عندما سمعنا بوجود ماء في صخيبر على الرغم من أننا سوف نضطر للانتظار حتى الصباح كي نتمتع به. وحتى نحقق أقصى فائدة من هذا الموقف فقد خلصنا من كرم الوفادة الذي قدمه لنا علي، ذلك الرجل العملاق ذو اللحية السوداء - وقدنا سيارتنا إلى البعيد قليلاً في واد جانبي يتصل بوادي صخيبر خلف سلسلة الجبال. وهنا نصبنا معسكرنا بأفضل صورة استطعناها في الظلام انتظاراً لجماعة الإبل، التي لم تصل إلا بعد الثامنة مساءً. وفي الوقت نفسه تبعنا علي ومعه تيس لعشائنا، وقد كافأناه على ذلك بشكل مناسب، وقد ساعدنا في حينه على طبخه وأكله.

وكان هو وعائلته أول الكائنات البشرية التي صادفناها منذ خروجنا من الخضراء، على الرغم من أن جميع الروايات تذكر أن معظم الآبار في هذه المنطقة المجاورة لطريقنا يوجد بها مجموعة من البدو. وبينما كنا نجلس ننتظر العشاء ووصول رفاقنا فتحت جهاز المذياع لتسليتنا، وجلس علي مسحوراً بتلك الأصوات التي تتحدث باللغة العربية وتخاطبه من أقصى أطراف العالم. ولسوء الحظ، أفسدت هذه المتعة شيئاً ما نتيجة الظواهر الجوية الكهربائية ولم أكن قادراً على معرفة إشارة الوقت التي اعتدت عليها من القاهرة أو القدس. وعلى أي حال كنت هنا في المكان نفسه

عندما سمعت إعلان تعيين (هيئة ملكية) للنظر في مشكلة فلسطين، وكان اللورد بيل والسير هوراس رومبولد أكبر شخصيتين فيها. وفي الحقيقة كنت خلال رحلتي الطويلة قادراً على متابعة أخبار العالم، وأستمع ببعض الاسترخاء من نوع غير ذي أهمية عندما أشعر أنني أميل لذلك. وكان معي أيضاً مجموعة هائلة قديمة من جريدة التايمز لأقرأها في أوقات الراحة. وفيها الكلمات المتقاطعة اليومية التي كنت أقوم بحلّها كي تطرد اللوغريمات والحسابات الفلكية من رأسي تمهيداً للنوم.

وخلال سيرنا بعد الظهر أدركت فجأة أن السيارة الثانية، وهي شاحنة نقل مفتوحة تحمل أمتعتي وأربعة أو خمسة رجال، لم تكن تتبعنا. وقد توقفت فوّاً انتظاراً لها، وانقضى وقت طويل قبل أن نراها أخيراً قادمة في طريقنا. لقد نفذ منها الوقود بصورة مثيرة للدهشة، والأسوأ من ذلك أنه ليس معها احتياطي على متنها، ولذلك قام محمد بتفريغ صفيحة من الكيروسين في الخزان ومشى بها الاثني عشر أو الثلاثة عشر ميلاً الباقية حتى لحق بنا بلا صعوبة.

وفي الصباح الباكر كان المعسكر يضحج بالحركة والنشاط لقيادة الإبل إلى الير لتنال ما تحتاجه بشدة من ماء تروي به ظمأها. وقد تبعتهم سيراً على الأقدام حتى الوهد الضيق الذي يمتد إلى ما يزيد على ميل إلى نقطة يوجد عندها مهبط سهل وقصير إلى بئر صخيري في تنوء من الوادي المطوّق بالصخور. وهنا وقفنا مشدوهين نراقب منظرًا مزدحمًا، فقد كان هناك جماعة من عرب دهم من قرية الخزم في الجوف تسقي الأغنام والماعز والإبل. وكان معظم الجماعة فيما يبدو من النساء إلا أنه يوجد معهن ثلاثة أو أربعة رجال. كانت بعض النساء شابات وفاتنات بدرجة كبيرة، ولذلك سرعان ما قام فرج -الذي كان يرافقتي- بتجاذب أطراف الحديث معهن. وقد تم الترحيب بي وسط هذه الدائرة الفاتنة بسلطانية مليئة حتى حافتها بلبن الماعز، وقد كافت البنات عليها بقطع من الفضة. ولكن انتباهي سرعان ما انصرف عنهن باكتشف نقوش على الصخور المحيطة بنا، وقد مضيت قدماً نحوها لكي أنسخها، بينما

ظلت يثرثرن عن نقوش أخرى وأفضل من هذه موجودة بين الصخور والآثار في وطنهن بالجوف.

وانتهت مداعتنا، وعدنا للمعسكر لنجد أن الطباخ قد انتهز فرصة تأخرنا وقام بإعداد الغداء. وفي الوقت نفسه كان محمد بن قنير من قبيلة الصيعة والذي كان أمير نجران قد أوصى به مقدماً ليرشدنا ويفسح لنا المرور بسهولة وحرية في منطقة قبيلته، قد وصل المعسكر لينضم للجماعة، وكان أبوه، علي بن قنير، شيخاً لقسم من القبيلة ذي مقام عظيم وكان في ذلك الوقت غائباً في زيارة للرياض لمقابلة الملك. وكان محمد رجلاً عذب الحديث، في حوالي الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمره، رقيق البنية، وتنقصه القوة، ويبدو أنه مصاب بالسل ويظهر أن فخذه من قبيلة آل حنيير قد هاجر بشكل دائم تقريباً إلى المنطقة المجاورة لنجران، وهكذا اكتسب الجنسية العربية السعودية.

وكان الوقت قد بلغ الظهر بالفعل عندما انتهينا من الغداء، وبعدها ركبنا السيارات وبدأ السير لإعادة تتبع خطواتنا التي مشيناها الليلة الماضية على خط وادي قراء حتى النقطة التي دخلناه منها. وكان هناك عدد لا بأس به من أشجار الأثل والسنط على طول القناة، ولاحظت عدة أسراب من طائر الرقراق، وهي بلا شك أوائل الطيور المهاجرة في الخريف، على الرغم من أن الوقت (٣٠ يوليو) لا يزال مبكراً بصورة مثيرة للاستغراب. وربما تمكث بعض هذه الطيور لتتناسل في الأجزاء المناسبة من جبال اليمن أو تتخذها مأوى لها مثلما فعل الشقراق الحبشي في سهل تهامة. وكانت نباتات الوادي تضم شجيرات الحرمل والمرخ مع كثير من حشيش الشام الحشن. وقد أطلقت رصاصة على طائر مغرد واكتشفت أن رجله كانتا مكسورتين وإنه بلا ريب قد تخلف عن رفاقه المهاجرين للشمال في أوائل الصيف نظراً لإعاقة.

إن وادي قراء عند خروجه من التلال - يسير بين ضفتي رمال يرتفعان حوالي خمسة عشر قدماً. وقد لزمنا الضفة اليسرى لتمكن من السير على سهل رملي واسع

وذي أرض ثابتة وجيدة عند انتقائه بوادي اليتمة خلف رابية طويلة ومنخفضة ومغطاة بالرمال وتتكون من الصخور وتسمى (لغدم). وعلى البعد أمامنا ظهر تل (الفهود) الصغير، الذي يختفي في رمله وادي اليتمة. وقد رأينا طيور الحبارى والغزلان هنا: وانطلق جعل على قدميه يطارد خلصة واحدة من النوع الأخير، ولكنه لم ينجح. وقد حاولنا أيضاً اصطيد أربعة من طيور الحبارى تكمن بين روابي "العبل" بالسهل. ولكن كلما اقتربت منها السيارة بصورة مزعجة أطلقت جناحيها العنان. وبعد ذلك تركنا الصيد والمطاردة واتجهنا نحو أكمة (أم الشداد) الصخرية الناتئة. وهكذا أتينا على الضفة اليسرى لقناة (الفرش) التي تغطيها بكثافة التلال الرملية المتحركة، وهي أحد الفروع التي يصب فيها وادي خب في الصحراء. هذا الفرع يمتد على طول الجانب الشمالي لأم الشداد ومرة، بينما يخرج الخط الرئيس للوادي إلى الرمال على طول الحافة الجنوبية لسلسلة جبال الطويلة. وكان هناك في هذه القناة الكثير من أشجار المرخ التي تنمو نمواً وثيراً علاوة على غابة كاملة من أشجار السنط الطويلة من النوع على شكل المظلة. وفي هذه الغابة رأينا مرة أخرى عدداً قليلاً من طائر الشقراق. وقد سرنا في سهل رملي به خطوط من الحصباء لنطارذ غزلاً لمسافة معينة بدون نجاح حتى حافة القناة الرئيسة لوادي خب.

لقد كانت عبارة عن دلتا واسعة أكثر من مجرد قناة، ويتناثر فيها لمسافة بعيدة وعريضة حطام الأشجار والشجيرات التي جرفتها السيول. وهنا كان السير وعراً، إلى أن أتينا على مسار واسع مليء بالشجيرات والأشجار، الراك والعبل والسنط، عند حافة التلال التي يخرج منها الوادي، وهو الآن مثل قاع نهر واضح المعالم، إلى السهل مع حزمة عريضة من التلال الرملية المرتفعة والجميلة على طول ضفته اليسرى. وكانت جماعة الإبل قد وصلت بالفعل إلى المعسكر هنا، نظراً لأنها سلكت طريقاً مباشراً بدرجة أكبر، وقد قضيت طول فترة العصر حتى الغروب أتجول بالغابة بحثاً عن الطيور. وقد اصطاد فرج بالبندقية اثنين من الأرناب البرية في الوادي، في حين

وجدت الأشجار قد غزتها أعداد كبيرة من الطيور المغردة مثل (Orphean Warbler) والتُمير النيلِي الصغِير (Nile Valley Sunbirds) والبلابل والثرثار. وقد رأيت أيضاً بعض طيور الكروان الجبلي (Stone Curlews) كامنة بين الشجيرات على مقربة شديدة من معسكرنا.

ونحن الآن في حدود مسافة قريبة من آخر مكان للسقيا قبل عبور الصحراء. ولذلك تقرر أن نحاول الوصول إليه قبل غروب شمس اليوم التالي، وبناءً عليه انطلقت جماعة الإبل في المسير عند الساعة التاسعة مساءً، وكان هذا أول مرة تسير فيها بالليل طوال الرحلة. وكانت قبل مغادرتها قد سبقها تغيير كبير في توزيع الأحصال؛ فقد كانت بعض الإبل النجرانية تبدو عليها -حقيقة- علامات الذبول وعرض الهزال بالفعل، على الرغم من تقدمنا في السير بتمهل شديد، وسيكون من الضروري شراء قليل من الحيوانات الإضافية في الشضيف لمواصلة الرحلة الطويلة حتى العبر. وقد تم إحالة الشجار إليّ لإصدار حكم فيه ولكنني رفضت التدخل في الأمر على أساس أن ترتيبات الحمولة من مسؤولية سعد. ولا أدري كيف تمكن من حل لمشكلة، ولكن كم كان الوضع ساراً جداً وهادئاً عندما رحلوا عنا، وتركوا جماعة السيارات الصغيرة لتبعهم في الصباح.

وخلال الليل كانت السماء ملبدة بالغيوم، وفي الصباح استيقظت حقيقة بزخة من المطر، التي مرّت -على أي حال- قبل ربح شمالية معتدلة، غير متوقعة، ومحملة بالتراب. وكان الجزء الرئيس العظيم من جبل يرتفع حوالي ألفي قدم فوقنا، وليس ببعيد عنا، والوادي يمتد على طول حافته الجنوبية صاعداً للأعلى نحو قرى خب التي تبعد عنا بمسيرة نصف يوم في اتجاه الجنوب الغربي؛ ولذلك سيكون من الممكن، طبقاً لما ذكره ناصر بن شماخ وهو رجل كبير السن، وضئيل من فخذ المرادحة من قبيلة نهد ويدعي أنه مواطن من عياد، أن نصل الشضيف عن طريق قرى خب وعلى أي حال فقد قررت ألا نضيع الوقت سدى في هذا الانحراف عن

الطريق، حيث إن الحكومة اليمنية كان يمثلها في هذه المنطقة القاضي، والذي قد يعد أن من واجبه أن يحجزنا بانتظار وصول تعليمات إليه من قيادته. ومثل هذه الحالة الطارئة لا أستطيع أن أتحمّل مخاطرها في هذه المرحلة من بعثتي، وبناءً عليه قررت أن أدع خبأً لزيارة ممكنة أخرى في طريق رحلة عودتنا التي لم أحققها في الواقع. وقد واجهنا حاجز رملي هائل يسمى داعر الذي يبرز نحو الشرق من حافة مسار التي للجنوب منا وهذا أدى إلى انحرافنا عن دربنا والدخول في المرتفعات التي وجدنا بها طريقاً سهلاً في سلسلة من الأودية بين سلاسل التلال المتناثرة. وعن يميننا تقع كتلة جرانيتية بارزة ورائعة ومرتفعة نسبياً وتسمى الحجلى. وكانت قمته منشقة إلى جزأين بينهما فجوة ضيقة بعمق مئة قدم. وخلفها أتينا على امتداد وادي سرحان المليء بالشجيرات حيث ينسبط مقابل رمال داعر المرتفعة. ويشق طريقه بينها وبين تلال حسرج الصغيرة حتى يلتقي بوادي خب. وقادنا مجاز رملي، عامر بشجيرات (العلقى) الخضراء رائعة المنظر (والعبل) ووفرة النماء، إلى الكنف الداخلي لجبل داعر الرملي والذي يمتد من هنا في خط مستقيم ويصل ارتفاعه حوالي خمس مئة قدم وله حافة حادة مثل نصل السكين، ويستمر في سلسلة طويلة من التلال الرملية الجميلة مسافة بعيدة في الصحراء. وكان من الضروري أخذ قليل من الخيطة والحذر هنا في التعامل مع الحزام المنخفض من الرمال الناعمة الذي يمتد على طول مسارنا. وكان هناك أيضاً بعض منها في داخل الوادي الضيق. ولكننا نفذنا منها دون حوادث حتى أتينا إلى الأرض الأكثر ثباتاً تحت القمة الشاهقة لجبل محجوبة حيث كان درب حضرموت يحدده وجود حزام من آثار السير الملتوية والمحفورة بعمق في الأرض. وصرنا نمشي الآن في خط مستقيم نحو الشمال الشرقي، وكان سيرنا هذا رائعاً بي عمر واسع من الرمال الثابتة مع الحافة العليا لوادي داعر عن يسارنا وحاجز رملي منخفض يطوقنا عن جهة اليمين. ونتيجة لسيرنا بسهولة ويسر فقد استطعنا مطاردة دوجين

منفصلين من الغزلان اللذين انطلقا يعدوان أمامنا، واضطرا أن يجريا في خط مستقيم أمامنا نظراً لوجود رمال عالية على كلا الجانبين. وكان الزوج الأول من نوع (إدمي) الشائع، وقد هرب منا مرتين جرياً جيئةً وذهاباً. أما الزوج الآخر فكان من نوع الريم أو العفري وكان يعمل قد اصطاد الأثني التي زدتنا بوجبة لحم شهبي عند توقفنا وسد النهار تحت سلسلة جبل المعو. وبعد انطلاقنا حوالي عشرة أميال على طول هذا الممر انجرفنا قليلاً للجنوب عن الشرق لعبور السهل الذي يفصل (داعر) عن (المعو). وهنا أدى وجود غطاء نباتي للأرض، مثل (العبل) فوق كتل منخفضة من الرمل، و(الصهي) بل وحتى بعض النباتات الزهرية الصغيرة الصفراء الجميلة، إلى صعوبة السير. ومقابلنا ظهرت فتحة في سلسلة المعو الطويلة والتي سوف تقودنا إلى وادي أموا^(١) من خلفها. ولكن الغزال، الذي كان هذه المرة من نوع العفري والذي صنف بأنه نوع فرعي جديد^(٢) اعتمداً على لون جلودها ورؤوسها التي أرسلتها للمتحف البريطاني منذ سنوات مضت، قد عطل خططنا. فقد طاردناه لمسافة بعيدة على طول مقدمة سلسلة المعو نحو الغرب. وقد نجح جعل فقط في إصابته بجرح، ولكته انطلق يعرج في الأرض الوعرة عن يميننا، وواصلنا مطاردته فيها، ولكن ذلك كان غير مجد من الناحية العملية. وعلى أي حال فقد جرى جعل على قدميه وراء الحيوان، بينما أخذ الآخرون للراحة عند منتصف النهار. وخلال ذلك تناولنا، حتى الشبع، لحم الطريدة المشوي على الجمر مع الخبز والشاي. وقد وفرت لنا السيارات ظلاً ظليلاً من الشمس التي كانت في هذا الوقت من السنة دائية تقريباً من الرؤوس عند الظهر في هذه المناطق الجنوبية. وبينما كنت أرقد بجوار سيارتي على بعد حوالي عشرين ياردة من الشاحنة التي تجتمع خلفها باقي الجماعة يطبخون ويغنون، فقد

(١) ورد اسم هذا الوادي بهذا الرسم لدى الهمداني في صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، (لمراجعون).

(٢) عزالة سعودية. (المؤلف).

ظننت أنني سمعت أصواتاً آتية من حافة منحدرات المعو على بعد حوالي أربع مئة ياردة. وعندما أطرقت السمع، منصتاً باهتمام استطعت بسهولة أن أتبين الكلمات التي تقال، وأدركت أنها كانت مجرد حدى واضح جداً ومميز للثرثرة المنبعثة من خلف الشاحنة. وكان الصوت يبدو آتياً من أسفل قاع المنحدرات الصخرية، التي كانت تشكل نوعاً من البهو لرجع الصدى الهامس. وفي وقت متأخر قليلاً بعد اظهر لاحظت أن هذه الظاهرة قد ضعفت من ذي قبل بدرجة كبيرة. ورجع جعل في الوقت المناسب، وقد بلغ منه التعب والعطش مبلغاً، ولكنه كان يحمل هيكل طويده التي تم سلخ جلدها حتى أضمه لمجموعتي، قبل أن نستأنف رحلتنا فوراً بعد الساعة الثالثة عصراً.

وسرنا في وادٍ شديد الوعورة، يفوق دروب السير في حضرموت، حتى نفذنا خلال حاجز المعو. وعلى كلا الجانبين كانت الجُرف العظيمة والقائمة ترتفع عالياً فوقنا إلى أن أطللنا على سهلٍ واسع فيه تلال تنتشر فيها شجيرات وادي أمواه وتمتد عبره نحو الصحراء. وإلى البعيد بين الرمال في جهة الشرق ترتفع سلسلة جبال الحيزي التي كانت أول علامة أرضية لنا خلال أول يوم في عبور الصحراء. وبعد مسافة للأمام قليلاً استطعنا أيضاً أن نرى شريطاً مظلماً من التلال الذي افترض جعل - بقليل من الشك - أنه جبل الريان وهو الملاذ المفضل للبقر الوحشي.

وعند حافة وادي أمواه توقفت لألقي نظرة شاملة لمشهد التلال السفحية التي تحد الصحراء، التي سوف ندخلها حالاً. وإلى البعيد خلفنا وقفت الشاحنة لعطل في المحرك، وكان علينا انتظار وصولها. إن الاتجاه العام للوادي، الذي كانت قنواته واسعة بصورة جيدة ويمكن رؤيتها لمسافة بعيدة في اتجاه المجرى وعكسه، كان يسير من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وكان قاعه مغطى بصورة كثيفة نسبياً بالعُبل والمُرَخ والراك، ولكن لم توجد آبار في طوله كله. وعلى بعد حوالي ميلين عكس اتجاه المجرى يلتقي بوادي ملحمة الذي يلتقي هو الآخر فيما بعد بقناة غمير. وتوجد بتر

واحدة في مجرى وادي ملحمة. وبعد فم وادي ملحمة يتشكل وادي أمواه من خلال الالتقاء
ثلاثة أودية هي الشضيف والعريجا وشقبان ويوجد في كل واحد منها بئر للسقيا.

ونظراً لهذا الالتقاء الثلاثي انطلقنا في هذا الوادي عند استئناف سيرنا. ولم
نكن مضطرين أن نسير لمسافة بعيدة، فقد كانت المسافة كلها حوالي ثلاثة أميال فقط،
ولكن كان هناك بعض الرقع الرملية الصعبة في القناة. ورأينا نخلة وحيدة من نوع
الدوم، وكان ذلك بمثابة تغيير نرحب به في نباتات الوادي العادية. وبعد مسافة قليلة
تمر القناة بين جُرف شاهقة الارتفاع بها نقوش قليلة محفورة في الصخر الأسود.
وسرعان ما وصلنا إلى نقطة الالتقاء. ويأتي وادي شقبان، وبه بئر يبلغ عمقها عشر
قامت على مسافة ما عكس اتجاه المجرى، من جهة الجنوب ووادي العريجا من
الغرب. وتحولنا للشمال في قاع وادي الشضيف وسرعان ما أقمنا معسكرنا بجوار
عيون الماء الضحلة الواقعة في نتوء واسع من الوادي حيث تنتشر فيه مجموعات
صغيرة من شجر الدوم هنا وهناك. وكانت مجموعة الجمالة قد وصلت المكان منذ
زمن طويل، وهكذا اكتملت بنجاح أول مرحلة من رحلتنا. وقد كانت هذه المرحلة
عملة شيئاً ما، إلا من وجهة النظر الجغرافية. فلم نر كائنات بشرية إلا قليلاً، ولم نر
منازل مأهولة بالبشر على الإطلاق، حتى الحيوانات لم نرها إلا نادراً، مثل قليل من
الأرانب البرية والغزلان، والطيور نفسها لم تكن واضحة ومميزة، والحشرات كانت
أيضاً شحيحة. وقد كانت الأرض بشكل عام أرضاً ميتة، مهجورة، بين الصحراء
القاحلة وغطاء العشب.

وبعد الغروب فوراً نشطت ريح غربية غير سارة، وغمرت كل شيء بالرمل.
وعند حلول وقت العشاء تقريباً هطلت رشة خفيفة من المطر لدقائق قليلة، وفي
الساعة العاشرة ليلاً تلقينا مطراً آخر كان كافياً أن يجعل الأشياء غير مريحة لبرهة من
الزمن، ولكنه لم يكن كافياً ليفيد تلك المنطقة الظمأى بأي صورة حقيقية. وإلى البعيد
نحو الجنوب، كانت الغيوم الكثيفة تزمجر بالرعد وتومض بالبرق.

وجاء حسن بن هضبان وهو شيخ كبير من قبيلة دهم وذو مظهر مميز لمقابلتنا من معسكره بجوار عين الطرفاء بوادي العريجا وكنا قد علمنا به في نجران كأحد المجندين المرغوبين الذين يمكن ضمهم لجماعتنا إن استطعنا ضمان خدماته. ولم يكن هناك أي صعوبة في ذلك بالتأكيد، حيث إنه هو نفسه تطوع لمصاحبتنا وقدم لنا "الذلول" الخاص به. كما تحمل أيضاً ترتيبات شرائنا لبعض الحيوانات الإضافية لتحمل الأمتعة ولكي تساعد في تخفيف الحمل عن إبل نجران التي أصابها التعب بالفعل، وكان من ضمن الأمتعة زيادة كبيرة في إمدادات الماء المعبأ في براميل الوقود الفارغة والقرب المصنوعة من جلود الأنعام تكفي لأربعة أو خمسة أيام التي سوف نقضيها في عبور الصحراء. ولخلق توازن مع ارتقاء ابن هضبان إلى موقع رفيع في الجماعة، لم يظهر عبدالله بن مدعار وهو شيخ من الكرب وكان تم تبنيه مسبقاً باللحاق بنا هنا. وعلى أي حال فقد جاء اليوم التالي، ليختفي مرة أخرى بعد أن أعطانا وعداً غامضاً بأنه سيعود في الوقت المناسب عند بدء رحلتنا في الغد. وجاء الظهر قبل أن يصل مع ستة رجال آخرين من قبيلته الذين كان من الواضح أنهم يشمون رائحة الحصول على وظيفة مريحة. وافتقت أنا وسعد على أننا لسنا بحاجة لعنصر من الكرب بهذا العدد الكبير لكنه يجوز لهؤلاء الرجال الإضافيين أن يرفقونا إذا استطاعوا توفير مطايا لأنفسهم وإحضار قريبهم الخاصة بهم للتزود بالماء. ولم يكن هناك صعوبة في ذلك، ولكن الرجال طلبوا دفع جزء من خدماتهم مقدماً كشرط للحضور. وقد اعترضت على هذا بصورة قاطعة، وذاب الرجال في غياهب المجهول بلا تطفل، وقد أثلج صدري ذلك كثيراً. وكان ابن مدعار رجلاً في حوالي الستين من العمر، ذا لحية بيضاء تماماً وكثة وملامح قوية تنبض بالحياة والنشاط. وكان لا يعيب مظهره سوى عينيه المغمضتين بدقة، حتى ليبدو من الناحية العملية أنه أعمى وذلك لإصابته ببعض أمراض العيون. وكان يأمل بحماقة أنه قد يكون عندي دواء لها بين أمتعتي. كان حديثه فظاً ومتحدياً، ولكنه كان لديه روح طفل أفسدها فقط حب

المال واكتنازه ويخل الصحراء الذي يتعذر تفاديه . وقد أحضر معه -كما فعل ابن هضبان- أولاده الصغار وهم صبية في العام الثاني عشر أو الثالث عشر من أعمارهم - ليتعلموا التكسب في الصحراء، وليعملوا مثل خدم شخصيين . ولكم تأثرت كثيراً لرؤية عناية الآباء المفرطة، التي تصل إلى حد الهم بإطعام ذرياتهم ، لا سيما عندما يكون الصبية غائبون مع الإبل التي ترعى ويخفقون في الرجوع وقت الطعام . وفي مثل تلك المناسبات كانت هناك صينية مليئة بالرز مع قطعة كبيرة من اللحم جاهزة لهم فور عودتهم مباشرة .

وتصرف قناة الشضيف منطقة تجمع مياه واسعة في منطقة سفح التل . ومن الواضح أنها تتعرض على فترات متقطعة للسيول، نظراً لأن كثيراً من شجر الدوم في منقعة البئر كان متكسراً من جذوره . وفي الحقيقة كان الوادي أسفل البئر مغطى بحطام متناثر من الأشجار وغيرها . والبئر - أو بالأحرى النبع (من النوع المعروف باسم فضية وجمعها فضايا) عبارة عن حفرة غير مبطنة بجانب قاع المجرى وممتلئة بالماء على عمق عشرة أقدام من طبقة الحصى التي تغطي القاع الصخري بطبقة رقيقة حتى لا يكاد يرى إلا جزء منه . ويوجد الماء بصفة شبه دائمة تقريباً . والتواء الدائري للودي في هذه النقطة يزينه اثنان أو ثلاثة من أشجار الدوم كاملة النمو، وورق عظيمة من أشجار البلميط وهي نوع من النخيل قصير ومروحي السعف، مع انتشار شجر الستط . وحوله ترتفع التلال المنخفضة التي لا يزيد ارتفاعها عن مئة قدم فوق مستوى الوادي، وتشكل جزءاً من الأرض الواسعة المرتفعة المحيطة به والتي تحتوي أيضاً على الكثير من قنوات السيول المشابهة مثل العريجا وشقبان وملحة وغيرها هذه البقعة المحدودة الارتفاع ، تمتد لمسافة ما إلى الغرب، ولكنها تنفصل عن سلاسل جبال اليمن الرئيسية بقناة الجحوف التي تجري جنوب شرق من منابعها في الجرف الرئيس بالمنطقة المجاورة لصعدة . إن الصخور على الضفة اليسرى لوادي الشضيف، الذي ينحدر إلى أسفل في انحدار شديد حتى نقطة الالتقاء الثلاثي التي ذكرناها من قبل،

كانت محفورة بالعديد من النقوش العربية البدائية. وفي الزاوية المكوّنة باللقاء قنتي الشضيف ومآوة توجد قمة صخرية متوجة آثار قلعة قديمة مبنية من الحجارة الجرانيتية غير المصقولة وتتكوم فوق بعضها بدون مونة، وكانت القلعة دائرية الشكل، ويبلغ قطرها حوالي ثلاثين قدماً. وقد كانت وظيفتها -بلا ريب- حراسة منطقة التقاء الأودية الثلاثة من تدخل العدو.

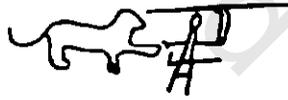


وعند سفح التل يوجد عدد هائل من الأكوام من الصخور المرصوفة بدون ترتيب وبشكل عشوائي، والتي قد تكون إما قبوراً أو نصباً تذكارية، وعلى مسافة حوالي ١٢ أو ١٣ خطوة منها يمتد قوس ضحل من البناء بطول ٢١٠ خطوة، ويسير مع المحيط المتعرج للتل على طول حافة الوادي، ولكنه يبدأ وينتهي بدون أي غرض واضح. ولم أستطع أن أقاوم النتيجة المبدئية التي توصلت إليها وهي أن هذه الآثار تمثل آخر دليل باق على وجود سد قديم هنا على عرض رأس وادي الأمواه وأسفل الملتقى الثلاثي، مع قناة تابعة له تجري على طول جانب التل بمستوى مرتفع قليلاً. وكان الحوض عند الملتقى يقوم بوظيفة حجز قدر عظيم من مياه السيول، ولكن ما هو الغرض من مثل هذا التخزين؟ هذا ما لم أستطع فهمه أو تصوّره. ولأقصى مسافة أستطيع رؤيتها أمامي لا توجد رقعة صالحة للري على كلا جانبي الوادي لأميان كثيرة، ويبدو أن الغرض من الخزان كان لمجرد ضمان اتزود الدائم بالمياه لسقيا الإبل والأغنام وما شابه.

والحقيقة المثيرة للفضول والتساؤل عن هذه الآثار أنه يوجد بين الشظايا غير المستوية للصخور المحلية عدد ضخم من طوب الحجر الجيري المشذب بطريقة جميلة

ويبلغ طوله حوالي قدمين وسمكه قدم واحدة. ومن المؤكد عدم وجود أي حجر جيري في أي مكان بهذه المنطقة المجاورة، وتزعم الأسطورة المحلية أن هذا البناء الرقيق قد انبثق عن سد مأرب المشهور. وطبقاً لما قاله ابن هضبان أنه كان في بعض هذه الطوب نقوش، ولكننا فشلنا في العثور عليها وربما تكون هذه (الحجارة المكتوبة) قد تزعمها البدو لبيعها للتجار في صنعاء، وإلى هناك أيضاً، كما قال ابن هضبان، ذهب تمثال صغير لجمل عُثر عليه بين هذه الآثار نفسها. وهذا التمثال جلب لمكتشفه المحظوظ مبلغاً هائلاً قدره عشرة ريالات.

وبعد الفحص الشامل لهذا الموقع المحير، انطلقت أنا وابن هضبان وابن قنير في قناة وادي العريجا لرؤية الصور والنقوش المحفورة على صخورها. وعلى مسافة ميل ونصف من الالتقاء الثلاثي أصبحت القناة غير صالحة بشكل واضح تماماً لمرور السيارات نتيجة لوجود حاجز طبيعي من الصخور يمتد من جانب إلى آخر لمسافة ما.



وقد سرنا نصف ميل آخر إلى حفرة الماء المسماة عسبة وفيها عمق الماء لا يبلغ إلا قدماً واحدة فقط في القاع الرملي. وفوقها مباشرة يوجد خط من الجرف الجرانيتية السدء الشاهقة، الذي يعرف باسم سيق المري على طول الضفة اليسرى للقناة، وعليه علامات الماء الحميرية مثل O أو O محفورة به، مع اثنتي عشرة نقطة تشير إلى عدد الخطوات المزدوجة بينها وموقع ينبوع الماء. وكانت هذه أول تجربة لي أعرف فيها ذلك النظام الذي يشير إلى وجود الماء ومكانه الدقيق. وطبقاً لأقصى حدود علمي لم يلحظ أي رحالة سابق في الجزيرة العربية أو في أي مكان آخر مثل ذلك النظام، ولكنه يبدو شيئاً عادياً في عصور سبأ البكرة. وعلى مسافة قليلة فقط، وفي

الجانب نفسه من القناة توجد واجهة كبيرة لحائط صخري به عدد من الكهوف على مستوى الأرض. وعلى الجانب الآخر لمسافة ما تمتد هضبة العريجا نفسها مع وجود مجرى مياه منتظم تحت السطح الرملي بيوصات قليلة فقط وذلك على امتداد سفحها. وكان هناك أيضاً عدد من النقوش القديمة والعديد من علامات الماء، بينما توجد عدة أشجار من الدوم ومجموعات من شجر البلميط في منطقة متسعة من القناة فوق الصخور قليلاً وأسفل مدخل شعيب تغلغل من الضفة اليمنى.

وقد سرنا حوالي نصف ميل آخر أو أكثر قليلاً إلى أن وصلنا إلى أول ينبوع من ينبوعي الطرفة الاثني المملوءين بالماء. وهنا، مرة أخرى، كانت علامة الماء محفورة على الضفة اليمنى (وكانت الحلقة منقوشة بلا مبالاة تجاه الأعلى أو الأسفل وتمثل دليلاً مربوطاً بحبل طويل) وكان مع العلامة اثنا عشرة نقطة على جانبها وبعض الرسوم غير الدقيقة للإبل. وقد ثبت بالفعل أن مسافة حفرة الماء في القناة الرملية تبلغ بالضبط اثنتي عشرة خطوة مزدوجة، وكان الماء على بعد ثلاثة أقدام في القاع وبعثق حوالي ثماني عشرة بوصة. لقد كان الماء نظيفاً، عذباً، صافياً إلا بما يغطي سطحه من ريش الطيور، والنحل الميت والفراشات وخلافها، بل كان بارداً ومنعشاً بشكل عجيب. وكنت عطشاً بعد مشينا ذاك وتمتعت بالشرب من ذلك الماء فعلاً.

إن ينبوع الماء هذا يقع فوراً خلف ثنية الوادي ليسار حيث تجري القناة هناك في امتداد طويل واسع إلى أن تصل إلى بعض التلال المنخفضة في البعيد. والبئر الثانية، المشابهة للأولى المذكورة أعلاه، تقع على مسافة ربع ميل منها وبها ثلاثة أو أربعة من أشجار النخيل ذات التمور الناضجة، ولكنها من نوع رديء جداً، وهي تقف كعلامة على موقع معسكر ابن هضبان المكون من خيمتين صغيرتين من الشعر. وكان هناك مجموعة من الجمال والأغنام تسقى عند البئر حين وصلنا إليها. وبعوض الصعوية انضغط ثلاثتنا في المساحة الضئيلة المتوفرة في مقر إقامة مضيفنا والذي كان مليئاً بالمتاع المعتاد للبدو الرحل. وكان سرج جملة الخاص وسجاده المصنوعة من جلد الغنم قد تم

ترتيبها لي بجوار مرتبة جلدية جلست عليها. وكانت أواني القهوة مرصوفة بجوار نار صغيرة عند الحافة الخارجية للخيمة، في حين تقبع مواعين الطبخ، والأواني، في كومة مقابل الطية الخلفية، وراء مضيفتنا، زوجة ابن هضبان الكبرى. وبجوارها جلست ابنتا البالغة رحمة وعدد كبير جداً من الأطفال الصغار - وكان بعضهم من ذرية زوجين غائبين وهما يحتلان الخيمة الأخرى، ويبدو أنهما من ذوي القرابة القريبة لابن هضبان. وكانت رحمة شابة في حوالي العشرين من عمرها، وترتدي ثياباً فضفاضة من النوع النجدي والتي تخفي هيئتها بالكامل، بينما كان وجهها من قسبة أنفها فما دون مغطى برقعة من القماش الأسود مزينة بزوائد وأطراف من الفضة وأشرطة معدنية لامعة. وكان شعرها مغطى بالغطاء العادي من قماش المسلمين الأسود، ولكن جيبها الجميل نوعاً ما وعيونها البنية الفاتنة كانتا مكشوفتين تماماً. ولم تكن بهية الطلعة جميلة المحيا على وجه التحديد، ولكنها مع ذلك لم تكن محرومة من سحر وفتنة معينة، على الرغم من أنها ظلت صامتة تقريباً خلال جلوسها الطويل، ولاحظت أنه لم يعرض عليها أبداً القهوة والقشر اللذين يدوران على باقي الجماعة بما فيهم أمها الثائرة الودودة. وكانت ملابس الأخيرة تشبه ملابس ابنتها، باستثناء رقعة الوجه التي كانت سادة تماماً، وكانت ترفعها بدرجة كافية لتدخل فنجان القهوة إلى فيها.

وكان أحد الأطفال الموجودين يرتدي عقداً من حبات العنبر المقلد. وكانوا كلهم ذوي عيون مريضة، وبعضهم شديد المرض بصورة فظيعة. وبينما كنا نجلس هناك كانت رؤوسهم ذات الشعر الأشعث تتلقى -واحداً تلو الآخر- اهتمام رحمة التي كانت تبحث عن القمل وتقتله بكفاءة وقدرة هادئة. وجاء رجل، يحتمل أنه صاحب الخيمة الأخرى، وانضم إلى دائرة العائلة في مرحلة متأخرة من زيارتنا. ويبدو أنه قد أتى لتوه من مسافة بعيدة ولديه أخبار عن الولد الكبير الأحسن في صنعاء حيث كان مثل الكثير من الشباب الآخرين ذوي المكانة القبلية الطيبة، يتمتع بكرم الحكومة كرهينة لضمان سلوك والده الحسن. ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر نظام الإمام يحيى ولا حتى

بخله الشديد، أشد بغضاً ومقتاً في هذه المنطقة من خطف واحتجاز الرهائن ها . ولكن الأخبار في هذه الحالة كانت طيبة، فقد كان الشاب في حالة جيدة وإذا أراد له سيعود لبيته مرة أخرى في يوم ما . وتفوهت النساء ببعض الأدعية والثناء على لئه والشكر له والأمل في عودة الولد . وكان هذا الرجل الذي أتى علينا يدعى مبروك بن محمد بن ناصر من فخذ المرازيق من قبيلة دهم واكتشفنا، بالصدفة العجيبة، أن ولده كان هو المكتشف المحظوظ للجمل البرونزي الذي ذكرناه خلال حديثنا في الصباح .

وعندما قلت إن الوقت قد حان للتحرك احتج ابن هضبان قائلاً إن الوقت مازال مبكراً وشديد الحر للمشي . وعلى أي حال فقد بقيت مصراً على رأيي، ونهض متردداً كي يلحقني، وهو ينهمك في إصدار توجيهاته الأخيرة لعائلته المجتمعة أمامه والتي لن يراها مرة أخرى إلا بعد عودته من بعثتنا . ووضعت ريالين اثنين في يد امرأة العجوز وشكرتها على كرم ضيافتها وأسرعت الخطى نازلاً في الوادي . وسرعاد ما جاء ابن هضبان في أثرنا، ودهشت عندما رأيته قادماً بمفرده . وكان ابن قنبر القدي يمقت بذل أي جهد أو مجهود ويمقت الشمس فوق كل شيء، قد تخلف عنا بحجة إحضار جملة الذي كان يرعى مع حيوانات قبيلة دهم وفي الحقيقة لم يعد للمعسكر الا في الصباح، وسرعان ما اتضح تفسير ذلك . وقد سألت ابن هضبان عندما كنت نمشي : «هل ابتك متزوجة؟» فرد قائلاً : «لا ولكنها كانت متزوجة» . وكان ابن قنبر هو الذي أخذها زوجة عذراء، ولكنه لم يستطع أن يدفع المهر المتفق عليه وقدره أربعون ريالاً، وبعد شهر أو شهرين أعادها إلى بيتها . ولم تتزوج مرة أخرى حتى الآن . ولذلك ربما يعود سبب تخلفه عنا إلى رغبته في تدفئة قلبه بجمر الحب القديم، بل ربما كان حبه القديم حنوناً شفوفاً . إن شؤون الزواج بينهم عبارة عن صفقات تجارية بسيطة بين العريس ووالد العروس، حيث يقوم الأول، إن لم يقدر على دفع الثمن كاملاً، بدفع شيء ما تحت الحساب . وكان ابن قنبر قد دفع عشرة ريالات

وأخذ الفتاة. وفي تاريخ استحقاق دفع المبلغ الباقي إما أن يرسل النقود لأسرتها أو يطلّق زوجته ويعيدها إلى والديها. وهذا النظام معرض بوضوح لمفاسد كثيرة وإساءة استخدام الحق ولكن اقتصراره على دائرة العائلة المحدودة - كما هو الحال - يقلل على الأرجح من عيوبه.

عدنا للمعسكر بطريق أكثر مباشرة من الوادي. وانطلقنا داخل التلال عند الشنية التي تخفي خيام ابن هضبان عن أنظارنا، ولزمنا سلسلة من الوهاد الصغيرة المؤدية إلى وادي العريجا حتى منطقة تقسيم مياه، ومن ثم نزلنا شعبياً مجهولاً لا نعرف له اسماً، والتي ينتهي بعد حوالي ميلين في وادي الشضيف وأعلى البئر بنصف ميل فقط. وتوجد القرب والبراميل الخاصة بنا قابعة حول الحفرة معبأة وجاهزة لرحلتنا الطويلة. وكنت الإبل، منذ وصولها في عصر اليوم السابق، ما تزال ترعى على الأرجح مع قطع ابن هضبان، ولم تعد من المرعى إلا الساعة الثامنة والنصف في صباح اليوم التالي، وهو الوقت الذي كنا وعدنا بوصول الإبل الإضافية عنده. وكان سعد قد انتهى بشكل أو آخر من ترتيب تفاصيل الأحمال مقدماً، بالإضافة إلى أخذ مخزون من المؤونة والطعام. وكان كل شيء قد بدا في الحقيقة جاهزاً للتحرك مبكراً عند الصباح. وبدا كل فرد مسروراً وواثقاً من الخطوة التالية من رحلتنا.